فصل
[وهذا نوع آخر في التعليل]

وهو أن يكون للمعنى من المعاني والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك المعروفة ويضع له علة أخرى. مثاله قول المتنبي:

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

الذي يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم وأن يدفع مضارهم عن نفسه، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم، وقد ادّعى المتنبي كما ترى أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك.

[الأخذ والسرقة في التخييل مع حسن التعليل]

واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير في الذم، كقصد المتنبي ههنا في أن يبالغ في وصفه بالسخاء والجود، وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد، فلما علم إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداء كره أن يخلفها، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها، وفيه نوع آخر من المدح وهو يهزم العدا ويكسرهم كسراً لا يطمعون بعده في المعاودة فيستغني بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم، وأنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للغيظ والحنق، ولا يعفوا إذا قدر، وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة فاعرفه.

ومن الغريب في هذا الجنس على تعمق فيه قول أبي طالب المأموني في قصيدة يمدح بها بعض الوزراء ببخارى:

مغرم بالثناء صبٌّ يكب المـ ـجد يهتز للسماح ارتياحا
لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا

وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين إنما يحضرونه في صدر النهار على عادة الملاطين، فإذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التي ليت من أوقات الإذن قلُّوا[1] فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم. والإفراط في التعمق ربما أخل بالمعنى من حيث يراد تأكيده به، ألا ترى أن هذا الكلام قد يوهم[2] أنه يحتج له أنه ممن لا يرغب كل واحد في أخذ عطائه وأنه ليس في طبقة من قيل فيه:

عطاؤك زينٌ لامرىء إن أصبته بخير وما كل العطاء يزين

ومما يدفع عنه الاعتراض ويوجب قلة الاحتفال به (أي بالاعتراض) أن الشاعر يهمه[3] أبداً إثبات ممدوحه جواداً أو تواقاً إلى السؤال فرحاً بهم. وأن يبرئه من عبوس البخل، وقطوب المتكلف في البذل، الذي يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال جواد ومن يهوى الثناء والثراء معاً ولا يتمكن في نفسه معنى قول أبي تمام:

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امرىء والدراهم

فهو[4] يسرح إلى استماع المدائح، ولا يبطىء عن صلة المادح، نعم فإذا سلم للشاعر هذا الغرض لم يفكر في خطوات الظنون. وقد يجوز بشيء من الوهم الذي ذكرته على قول المتنبي:

يعطي المبشر بالقصاد قبلهم كمن يبشره بالماء عطشانا

(1) فلوا، وفي نسخة قلوا، أي صاروا قليلاً، وفل عنه عقله ذهب ثم عاد إليه (ش).
(2) هذا يندفع بقوله رواحاً أي بعد أن غدا عليه وأخذ من عطائه أول النهار (ش).
(3) قوله: يهمه... الخ أي فلا يتوهم أنه قصد ما ذكره من الوهم (ش).
(4) أي الممدوح.

وهذا شيء عرض ولاستقصائه موضع آخر إن وفق اللّه.

وأصل بيت الطيف المستميح من نحو قوله:

وإني لأستغشي وما بي نعسة لعل خيالاً منك يلقى خياليا[1]

وهذا الأصل غير بعيد أن يكون أيضاً من باب ما استؤنفت له علة غير معروفة إلا أنه لا يبلغ في القوة ذلك المبلغ في الغرابة والبعد من العادة، وذلك أنه قد يتصور أن يريد المغرم المتيم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه في المنام وإذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فاعرفه.

ومما يلحق بهذا الفصل قوله:

رحل العزاء برحلتي فكأنني أتبعته الأنفاس للتشييع

وذلك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة وترك ما هو المعلوم المشهور من السبب والعلة فيه وهو التحسر والتأسف، والمعنى: رحل عني العزاء بارتحالي عنكم، أي عنده ومعه أو به وبسببه، فكأنه لما كان محل الصبر الصدر[2] وكانت الأنفاس تصعد منه أيضاً صار العزاء وتنفس الصُّعَداء كأنهما نزيلان ورفيقان، فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاء لحق الصحبة.

ومما يلاحظ هذا النوع ويجري في مسلكه وينتظم في سلكه قول ابن المعتز:

عاقبت عيني بالدمع والسهر إذ غار قلبي عليك من بصري
واحتملت ذاك وهي رابحة فيك وفازت بلذة النظر

(1) الشعر للمجنون، يقال استغشى ثوبه وبثوبه إذا تغطى به. ويكنى بذلك عن طلب النوم.
(2) إن الحزن والخوف إنما تشعر النفس بهما بانقباض في الصدر وكذا سائر الانفعالات النفسية. وأما الصبر فهو مقاومة الانفعال بقوة الإرادة حتى لا يترتب عليه من العمل ما هو ضار، فهو ليس انفعالاً بل معنى يشبه السلب لأنه حبس النفس ومنعها من الاسترسال في الجزع، وإنما يقال إن موضعه الصدر لأنه معالجة نفسية لما يشعر به في الصدر الذي هو مكان القلب الذي هو ينبوع الدم، على أن الشعور لعصب القلب لا لدمه المتأثر به.

وذاك أن العادة في دمع العين وسهرها أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب، أو اعتراض الرقيب، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب، وقد ترك ذلك كله كما ترى، وادّعى أن العلة ما ذكره من غيرة القلب منها على الحبيب وإيثاره أن يتفرد برؤيته، وأنه بطاعة القلب وامتثال رسمه رام للعين عقوبة فجعل ذاك أن أبكاها، ومنعها النوم وحماها، وله أيضاً في عقوبة العين بالدمع والسهر من قصيدة أولها:

قل لأحلى العباد شكلاً وقدًّا ... أبِجد ذا الهجرُ أم ليس جِدًّا
ما بذا كانت المنى حدثتني ... لهف نفسي أراك قد خنت وُدا
ما ترى في متيم بك صب ... خاضع لا يرى من الذل بدا
إن زنَتْ بغيرك فاضر بـ ... ـها بطول السهاد والدمع حدا

قد جعل البكاء والسهاد عقوبة على ذنب أثبته للعين كما فعل في البيت الأول، إلا أن صورة الذنب ههنا غير صورته هناك، فالذنب ههنا نظرها إلى غير الحبيب واستجازتها من ذلك ما هو محرم محظور، والذنب هناك نظرها إلى الحبيب نفسه، ومزاحمتها القلب في رؤيته. وغيرة القلب من العين سبب العقوبة هناك، فأما ههنا فالغيرة كائنة بين الحبيب وبين شخص آخر فاعرفه.

ولا شبهة في قصور البيت الثاني عن الأول، وأن للأول عليه فضلاً كبيراً، وذلك بأن جعل بعضه يغار من بعض، وجعل الخصومة في الحبيب بين عينيه وقلبه، وهو تمام الظرف واللطف. فأما الغيرة في البيت الأخير فعلى ما يكون أبداً. هذا ولفظ «زنت» وإن كان ما يتلوها من إحكام الصنعة يحسنها وورودها في الخبر «العين تزني» يؤنس بها، فليست تدع ما هو حكمها من إدخال نفرة على النفس[1].

(1) لله در المصنف فإنه لا يفوته شيء من بيان تأثير الكلام في النفس الذي هو روح البلاغة وسرها. ولعمري إن كلمة الزنا الخبيثة لتؤثر في النفس الطيبة تأثيراً يجعل الصنعة في البيت صنعة خسيسة تشمئز منها أهل الحشمة والحياء، ولاسيما العذارى وفضليات النساء. وأما حديث «العين تزني» فهو للتنفير والزجر عن نظر الشهوة ولا أبلغ في ذلك من التعبير عنه بالزنا، وما أبعد الفرق بين خطاب الوعظ والتشريع وبين مغازلة المحب للحبيب.

وإن أردت أن ترى هذا المعنى بهذه الصنعة في أعجب صورة أظرفها فأنظر إلى قول القائل:

أتتني تؤنبني بالبكا فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفي قولها حشمة أتبكي بعين تراني بها[1]
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها[2]

أعطاك بلفظة التأديب حسن أدب اللبيب، في صيانة اللفظ عما يحوج إلى الاعتذار، ويؤدي إلى النفار، إلا أن الأستاذية تعد ظاهرة في بيت ابن المعتز. وليس كل فضيلة تبدو مع البديهة، بل تعقب النظر والروية، وبأن يفكر في أول الحديث وآخره. وأنت تعلم أنه لا يكون أبلغ في الذي أراد من تعظيم شأن الذنب من ذكر الحد وإن ذلك لا يتم إلا بلفظة «زنت».

ومن هذه الجهة يلحق الضيم كثيراً من شأنه، وطريقه طريق أبي تمام ولم يكن من المطبوعين. وموضع البسط في ذلك غير هذا، فغرضي الآن أن أريك أنواعاً من التخييل، وأضع شبه القوانين ليستعان بها على ما يراد من التفصيل والتبيين.

(1) في رواية «وقالت» بدل تقول. ويروى الشطر:
أما تستحي يا قليل الوفاء أتبكي بعينٍ تراني بها

(2) هذا أشرف من قول الآخر:
إذا زنت عيني بها فبالدموع تغتسل